

دانيال رويس

وتاريخ الاصول المسيحية^{١١}

تأليف الأب هنري جلابرت اليسوعي

الساعة التي جمع فيها ابرام بن نوح ، في ارض حران ، على مقربة من الرها ، صوت العلي يهيب به الى هجر بلاده وبيت ابيه ، حتى الثامن والعشرين من شباط سنة ٣٨٠ ، التي شهدت الامبراطور تاردوسيوس في نيسالونيكية يصدر القرارات الآمرة باستئصال ما تبقى من الشماز الوثنية في الامبراطورية الرومانية المنتصرة ، طوى التاريخ في ذاكرته نغماً من النبي عام وخمس مئة عام . وإن الوحي الالهي الذي جمع ابرام قناته الاولى في عالم تتقاسمه الاوثان ، كان « يهو » ، بفهم رساله المديدين ، يعلنه ، فيتوضح يوماً فيوماً ، ويتعري من المادية فيه ، طوال ما يقرب من عشرين قرناً . وعندما تم ملؤ الزمان ، جاء السيد بنفسه ، خلفاً لخدمته : الكلمة تتجدد ، المسيح يعلم في فلسطين . انه يتوت ، فيبث ، فيصعد الى السماء . ولكن حبة الخردل التي بذرها في اورشليم ، نهضت من الارض ، شجرة باسقة ، تظلل العالم الروماني ، وتمتد الى البعيد ، في حقة لا تتجاوز ثلاثمائة عام . انه لتاريخ خصب ذلك الذي يعلمنا اياه دانيال رويس ، بعد المديدين غيره ، في مؤلفاته الثلاثة : « شمس الكتاب » و « يسوع في زمانه » و « كنيسة الرسل والشهداء »^{١٢} .

ونحن نسال الان فيما اذا كنا استبقنا الوقت للكلام عن هذه المؤلفات التي ما تزال ، في نظر المؤلف ، سلسلة غير مكتملة الخاطات ذلك ان كتاب

١١ من محاضرات معهد الآداب الشرقية ، نقلها الى العربية الاخ د. طه زكريا اللبناني

Daniel-Rops, *Le peuple de la Bible*.

١٢

Jésus en son temps.

L'Eglise des Apôtres et des Martyrs.

جديداً ، يتناول الكنيسة حيال العالم البربري ، هو قريب الظهور . وهناك اربعة غيره ، ستظهر فيما بعد ، فاتحة امامنا تاريخ المسيحية ، منذ عهد الكاتدرائية والصليبية والنهضة وحركة لوتار ، حيال عالم لا يؤمن بالله ، حتى هذه الايام التي نعيشها نحن ، حيث يصل المبشرون ، وقد سمعوا رصية المسيح : « اذهبوا وتلذذوا » ليس على حمل رسالة الانجيل الى اقاصي المسكونة وحب بل على حفرها ايضاً في قارب من يجهاونها او يتكبرون لها .

وبالرغم من ذلك ، فقد خيل لي ، اننا نحت هذا العنوان : « دانيال رويس وتاريخ الاصول المسيحية » نستطيع في هذا الحديث ان نرجع الى القمم الذي ظهر الى النور ، من كتب المؤلف ، دون ان نخطئ في ذلك ، لان القرار الذي اصدره تاودوسيوس يسجل ، ولا شك ، آخر حدث في اصول المسيحية التي تتفرع الى ثلاثة اقسام : التيهو ، مرور المسيح ، واخيراً إقامة الكنيسة . ولكل من هذه الاقسام كتابه المختص به .

تظهر هذه السلسلة عند فايار (Arthème Fayard) في مجموعته : « الدروس التاريخية الكبرى » التي انفتحت حتى الآن « لتاريخ فرنسا » و « نابوليون » المؤرخ بانثيل (J. Bainville) « وتاريخ انكاثة » لأندرية موروا ، ثم اصدرت مؤخراً « تاريخ الصين » للمؤرخ غروسيه (R. Grousset) . وهذه السلسلة لا تهدف الى كثير الايضاح في موضوع ضيق الحدود ، كما لو كانت اطروحة في السرون ، او الى الشروح الضافية لواحد من الكتب المقدسة ، كما هو شأن المعهد الكتابي في القدس ، لان المسافات الشاسعة من الزمن ، التي تطورها هذه المجموعة ، تأتي الإغراق في التفاصيل . القاية منها تقديم مؤلفات في متناول المثقفين حجماً وسمراً ، تشمل جاً من المراضيع ، وتلي عليها نظرة صادقة واضحة .

واذا كان المؤرخ هو دانيال رويس ، فإننا نتظر بحق ، انه يجمع الى دقة المآذون العلمية ، فهم الروائي الفخاني ، صاحب « سيف النار » و « النفس المظلمة » ، وفهم النقادة الذي حال الفاجعة الروحانية عند ريمبو (Rimbaud) وعند بيني (Péguy) وعند بيسيكاري (Psichari) ، ثم هذه الشفقة

امام الشقاء البشري عند واضع « الشقاء ونحن » ومصدر « يريد الشقاء » ،
واخيراً ايمان المسيحي الحق .

ثلاثة مؤلفات اذن : التاريخ المقدس ، وحياة يسوع ، وتاريخ الكنيسة ،
كلها تختلف اختلافاً عميقاً .

اما المؤلف الاول فانه ولا شك اصعبها مسلماً واخراجاً . نعم
لقد شهدنا ، في هذه السنوات الاخيرة ، تجديدًا شاملاً فيما يخص التوراة ،
يثبتة . اصدق تمثيل الاب لاغرانج ، وهو يسيد النظر في تفهم الكتب
المقدسة ، ثم يثار لكلمة الله التي ادعى التغلب عليها ، باسم العلم المتسرع ،
« نافدون » من كل الطبقات في حين ان المؤمنين - وعنا يجب ان نرى
اصبح الله - تركوا جانباً هذا الاغراق في التحفظ الذي تتسم به عصورنا
الاخيرة ، وعادوا الى كلمة الله ، جاعلين منها غذاءهم اليومي . ولكن مؤلفات
المختصين - حتى « تاريخ اسرائيل » لصاحب السيادة Ricciotti ، في
جزئيه الضخمين - كانت بعيدة عن متناول العامة . حتى ان التاريخ المقدس
الذي يتعم على كل مسيحي ان يهتم به اكثر من اهتمامه بتاريخ وطنه الخاص ،
كان يظهر كأنه تقضى في سحب العصور ، والخاصة المثقفة نفسها كانت لا
تذكر انها تعرفت اليه إلا في ذلك العقد من العمر الذي نستمتع فيه الى
حكايات السندباد البحري . اما قيسة كتاب دانيال رويس التي لا تهادلها
قيسة ، والتجديد العظيم الذي يتراءى فيه ، فهو انه سينير الاوضاع .

الفضل الاكبر الذي سيرجع الى هذا الكاتب منذ الان وصاعداً هو انه
سهل لنا ان نأخذ في الزمان تاريخنا المقدس . فدعوة ابراهيم ليست بعد حادثة
اسطورية ، جرت وقائعها في قديم الاجيال ؛ بل انها في حقيقةها الناصبة تصدى
لنا وقد وطأ لها خمسة عشر قرناً من الحضارة الشومرية . ان ابراهيم الذي
دعاه الرب هو معاصر للموراني ، الملك المشرق ، الذي بقي قانونه محفوراً على
نصب يشوي اليوم في اللوفر ؛ وان ما تحلى عنه ابراهيم يوم هجر أور هو
حضارة مزدهرة تظهر لنا الحفريات ما كان لها من رونق اخاذ : « اثاث المنزل
جميل معرق ، شراشف من الحرير الخالص ، واثواب ملوها بالنقش والتطريز » . . .

« وقياته هو لا تختلف بشيء » في مظهرها الخارجي ، عن هؤلاء الرعاة العديدين ، الزاحلين وراء المراعي ، بين المداين المحصنات ، القائم عليها الكنعانيون . . . وعندما يخرج موسى ويشوع بن نون بشعب اسرائيل من مصر ، ويحلانه بارض كنعان « تكون مقارنة في التساريخ : لان عولس ، حوالى ذلك الزمان ، أدخل الى طروادة حصانه الحداغ » . واذا كان لمملكة اسرائيل الحديثة النشوء ، بعد قرنين لا اكثر ، ان تثبت وجودها في العلم ، وبلغت اليها انتاريخ ، على عهد شارل وداود وسليمان ، فما ذلك الا لان مملكة بابل تمتاز مرحلة من اعد المراحل ، والسالة الحادية والشرين في مصر لم تعد ملوكها سوى اظلال الملوك : « فكان العالم ، اذ ذاك ، تقاقل عن تلك الرقعة الصغيرة من آسيا حيث يتابع شعب اسرائيل ما قسمه له الله . . . وكان المناياة عن سابق قصد ، جعلت ملوك اسرائيل في عظمة نادرة بينما سواهم من الملوك هم في خذلان ، ليتأزوا لنا اكبر مما كانوا عليه »

ولا يتسع لنا المجال لننوه بكل المقارنات التي تساعدنا على تعيين هذا التاريخ المقدس الذي نتلقته في تلميذنا المسيحي ، وادخانه في صلب تاريخ حوض المتوسط الذي نتلقته زمن الدراسة . فعلى عهد عطليا يكون بناء قبطاجية على يد الحوربيت ، وفيدياس ، وبيربلكليس والبارتون كلها ، ماصرة لنحميا الذي يحدد بناء الهيكل بعد العودة من السبي ؛ كما ان عزريا يعود الى اورشليم في السنة نفسها التي شهدت موت سقراط .

الى هذه المقارنات بين تاريخ اسرائيل وتاريخ العالم ، يضيف دانيال رويس ، - وهذا مظهر له اهميته الكبرى - مقارنات اخرى باحداث هي في ذاكرة الجميع لانها حديثة في الزمان . فمنذ الصفحة الاولى في كتابه ، لكي يشرح لنا رحيل ابراهيم ، يدعونا لننظر الى هذا الرحيل « كأنه حدث سري ، خفي في جوهرة الانبيل ، ولكنه في مظاهره المحسوسة ، له بالنسبة الى شعب الله ، ما كان له الى جان دارك ، بالنسبة الى دولة فريزيا » . ومحاولة حوراني ، الفاتح والمشتزع ، تشبه بعض الشيء محاولة نابليون . ثم انه يدعونا لثلاث تشكك كثيراً من الحدة التي قام بها يعقوب ليحل محل عيسى اخيه ، « لان فيها الكثير من هذا الدهاء الذي

يجب عولس الى اليونانيين» اما حادثة يوسف، فانها ولا شك اخاذاً بحقيقتها النفسانية : « هذا الشاب الاسرائيلي ، الذي بالمرونة التي تجيبه الى النساء . وتقل في إقناع الرجال ، يعرف ان يستخدم هذه العطية ايشق طريقاً لنفسه . . . فهو شبيه بديزرائيلي كما ان فرعونه شبيه بالملكة فيسكوريا » و « ششون ، اليس يعيد على بالنا ذكر هر كول ؟ » انها نفمة مريحة ككثير غيرها من النفقات في كتاب مشوق يعمد عن التجهّم والمبوسة . وهناك مقارنات اخرى ، تهيب بنا ، في كلمات قلائل الى التفكير العميق : « منذ اكتمال بناء الهيكل الذي قام به نحميا ، حتى ميلاد المسيح ، تصرمت ثخمة من القرون ، ولكن الكتاب المقدس قلما يتحدث عنها . انه يقص علينا بعضاً من الحوادث التي جرت في بدء هذه الحقبة الطويلة من التاريخ ، كما انه يهود ، حوالى اواخر هذه الحقبة ، الى اخبارنا عن اعمال المكابيين الحربية . ذلك يكون شأن تاريخ فرنسا لو لم نكن نعرف منه سوى الحوادث التي جرت على عهد كارلس السابع ، وخبر عن حرب سنة ١٨٧٠ ، انه يتراى لنا ان الذين سطاروا حوادث الكتاب المقدس ، احبوا ، عن سابق قصد ، ان يثيروا بصحتهم العميق ، الى انه علينا ان ننظر ، خلال سني الانتظار ، الى حياة الشعب المختار الداخلية ، اكثر منا الى الحوادث الخارجية . »

وعند الحياة الداخلية ، ياعدنا الروائي الذي اعتاد التحاليل النفسانية ، على تفهها حق الفهم . فالآباء ، والقضاة ، والملوك ، والانبيا ، كلهم يحبون تحت قلعه بنا كانوا عليه من خصال . فبعضهم يحبنا بالخذلان ، لاننا كنا نتمثلهم ، عن غير اعمال فكور ، كقادة وقع عليهم اختيار الله ليهودوا الشعب الذي هبط عليه الوعد . فابنا . يعقوب هم : « قبضايات لا يرغب فيهم » ؛ ويفتاح هو رجل نبذته الشريرة ؛ ثم اننا نحس عند دانيال رويس شيئاً من الدهشة حين نخبرنا عن « الاعيب ونجيبات ششون ، القديس الاخرج » . اما الرجال العظام ، فهاك بعضاً منهم : موسى « ذاك المجبول ، تلك الشخصية الغدة التي تمحي امام علمها الجبار ، وتظهر عظمة لا جاذبية فيها كاولئك الرجال الذين يسون شعباً من الشعوب ، في صميمه ، بطابع لا يمحى » .

وصموئيل : « قلب من لب ، ونفس ماؤها الله ، لها خلقت مهيب ، وهو يمثل دوراً صعب التمثيل فيقوم وسيطاً بين رجال أول زمانهم ورجال يريد زمانهم ان يولده . وشارل الملك المجمع « هذا الحار انبادة الذي يتعدى شرائع الله ، وهذا الحزوم الذي تهدد انشلالات نفسية . فاجئة ، هذا الحب الاولين الذي يذبح منهم جماً ، وهذا الرجل الذي تتنازع المشكلات فيحصل في نفسه مأساته المفجعة » .

انها صرد ناطقة ، تعج بالعاطفة الانسانية أو بالقسوة العادية ، وتسلأ مؤلفات رويس . وقد تكون صورة داود اجمل واحدة فيها : « اننا نعجب به كبطل ، ولا نتألك عن حبه . ليس كل ما فيه نقياً ، ولكن اذا كان له بعض خصائص القديسين كمحبته اللاهتجزئة للاله الاحد ، وثقته بالنهاية الالهية ، وایمانه الحار ، فانه لا يسمنا ان نسهو عن وجوده في عصر بري لم يكن الحكم على القسوة والحديعة موافقاً فيه ما تعودنا اليوم في شرائعنا وفي كتبنا حتى وفي تصرفاتنا كل يوم » - وحري بنا أن نشير عرضاً الى هذه الكلمة : في شرائعنا وفي كتبنا حتى وفي تصرفاتنا ايضاً - . « ولكن كم هو عميق تفهمه وقوته رجاذبيته . . ولا يكاد ينقصه ليكون قريباً منا ومدةء لب اكثر ، هذا الضعف الذي يحول الانسان خاضعاً لثقل المادة الاصلية ؛ واذا كان عالي النفس يجد حتى في خطيئته سبباً للألم وللندامة وللنفران . . . » والى جانبه سليمان « في كل مجده » بين تأني الذهب والحجارة الكريمة ، لا نجد الى محبته سيلاً . فبيله الى الترف وتهالكه على جمع كل ما يملك بصره هما دليلان على حداثة نعمته . . . ومع ذلك فقد كان له في تقليد اسرائيل ، مكان سرموق . ابن الامم ، في نظرة التاريخ ، تكاد تحفظ ابداً اعجاباً وعرفان جميل لرجال كانوا بحابة وجمال عليها ، ولكنها بواسطتهم نالت شيئاً من الرقعة . كذا هي حال نابوليون في نظر الفرنسيين »

هذا القول الاخير يظهر لنا ان كتاب دانيال رويس في التاريخ المقدس ، ليس هو حديثاً عن اشخاص معدودين ، واكنه تاريخ شعب كبير . « شعب الكتاب » هذا هو عنوان المؤلف . ودانيال رويس ، في نظرة الفيلسوف

ونظرة المؤمن ، يتبع خطى الشعب التي كان يقودها الله عبر الامتحانات القاسية وتواضع الوحي يوماً عن يوم . ان القبائل المديدة المنحدرة من صلب يعقوب والمشرقة بين المصريين ، عند مصب النيل ، احست بانها شعب واحد فوسى هو الذي يحملها ويكفلها ويقودها . انه باسم يهوه الذي يعرف اليهود اليه ، وباسم الشريعة التي يحيدها ، وباسم المبادئ الاساسية التي تتكفل حولها بقية المبادئ ؛ وانه يحول الى فكرة دينية لا ارفع ولا اجل ، يشد روابط الوحدة الشعبية جامعاً من هذه القبائل المشرقة التي لا تقفأ بتدسر ، شعباً واي شعباً اذا ما طواه الموت ، فان جلبة الفتوحات تتعالى : « قمعة سلاح ، ومذابح وصراخ ، وملائق تحترق ، وفي مزخرة هذا المشهد ، حفنة من شجاعات حلوة فردية » . وهنا يتصدى لنا الفيلسوف بهذه الملاحظات : « ان للحروب اليوم صبغة اشد خبائة منها في القديم ، لان الدعايات تنال الحقد والبغضاء القديعين بظواهر الفضيلة السامية . ان الشعوب المحمية لم يكن لها هذا الرباء وهذه الحدة الذين نشاهد اليوم » . على ان مأساة كبرى ، ذات ثلاثة وجوه ، تقض مضجع الشعب : القبائل الرحل تتحضر وتنتشر ، وهابيل ، ذلك الراعي ، يحس بانه اصبح قايين ، ذلك الخاوث ، كما ان الشعب يحس بان كلمة الهلي : « بمرق جبينك تأكل خبزك » سوف لا تبارحه من بعد . ومن وجهة اخرى فان المنازعات السياسية الناشبة بين القبائل والتي غالباً ما تقود الى الحروب الدامية ، تهدد ابداً وحدة اسرائيل . واخيراً فان الاستقرار في ارض كنعان كان يرافقه بعض اليهود في حرارة العبادة ، هذا المرد الذي كان يهدد سلامة الامة الاسرائيلية حتى زمان السبي ، والذي كان يدفع بجبهات من اليهود الى معابد الوثنيين للاشتراك بالحفلات الدينية النجسة . اما عظمة هذا الشعب فتقوم بانه ، رغم اليهود في الدين ، لم يقدم يوماً على نكران الهه نكراناً كاملاً .

ان شارل وداود ، في حق السياسة ، وتحدا الشعب في مملكة قائمة ، فعادوا الصلة التي كانت تراخمت حلقاتها بينها وبين .وسى النبي . اما في الحقل الديني فان اللاويين والانبياء كاشميا وإرميا وان الكهنة والفريسيين الاوائل ،

نَجَّوْا جِيهَهُمْ مِنْ اَنْدَمَارِ كُلِّ مَا كَانَ بِاسْطِطَاعَتِهِمْ اَنْ يَنْجِرُوهُ .^٥ ان قيام الشعب المختار كدّمة كان متوقفاً على ايمانه وعلى هذا التوحيد الذي حافظ عليه عاقظة الاسد ، حتى ان هذا الشعب لو لم يحافظ على ايمانه القويم لكان الزمان طوى ذكره اليوم كما طوى العالقة وملكة آدوم . . . انه لمن المذهل حقاً وما يفوق تفهم العقل ان هذه الامة الحنونة عدداً مرت بها العصور فهزئت بالحدود . ودانيال رويس يحاول ان يستخلص الاسباب التي جاءت هذا الشعب بصدده على الزمن فيقول : ان لذلك سبباً واحداً هو ان الله حافظ على شعب كان يعهد اليه ، من حين الى حين كثر الوعي العالي فيمنه روحياً بالتعمق في الحقائق التي أوحى بها اليه وفي اضافته اليها حقائق ثابتة جديدة .^٦ فابراهيم هو الذي يركز حجر زاوية التوحيد ، وموسى هو الذي يجسد الشريعة ويعلن المبادئ الاساسية . والانبياء هم الذين يحوِّرون هذه الفكرة السائدة في الشعب ، القائلة بان الائم الذي يعترفه احدهم يقع على الشعب كله ، مقربين بدلاً عنها فكرة المسؤولية الشخصية التي تقول بانه على كل انسان ان يعطي حساباً عما صنعه هو لا سواه . اما مشكلة الخطيئة فانها تصدت اذذاك للضيق اليهودي باكثر قوة ووضوحاً : فالخطيئة اصبحت ، في عرفهم ، جرماً اليماً ولطخة تنال من نقا النفس ، على انه أعطي لهم ان يعالجوا هذا الجرح بسميهم الجدي وراه استرجاع النقاء المفقود ، وباعمال التوبة والتكفير . وفي الوقت نفسه كانت الفكرة القديمة التي تدور حول المكافاة ، قد تحولت تحولاً كاملاً لان اليهود في البدء كانوا يحسبون ان الله يكافئ الاعمال الصالحة في هذه الارض ، واكثرهم غيروا وجهة تفكيرهم بعد ما قاسوه من الشقاء في ارض السبي ومن العذاب في العودة ، فلم يعد الموت في عرفهم نهاية للانسان بل اصبحت طريقاً ، وعرفوا ان الانسان يحاكم بعد الموت وينال الحياة التي يكون قد استحقها باعماله على هذه الارض .

وهناك صعوبة اخيرة لم يقدر الاسرائيليون على تذليلها : اذا كان الانسان الذي ابتلاه الخطيئة الاصلية مجراها الاليمية يعجز بقاءه الذاتية وحدها عن استكمال جهاده طلباً للبراة المضاعة ، فكيف يمكنه التفتت من هذا التضاد

المستعصي: عقل يهدينا سواء السبيل، ونفس تعجز، وحدها، عن متابعة سيرها في هذا السبيل، وتفتقر الى وسيط يحييها من العلاء... كان اسرائيل في انتظار محرم لهذا الوسيط، وهو يحس بقرب مجيئه ولكن هذا الاحساس كان، على الزمن، يظهر شيئاً على افواه الانبياء. ولا يتراعى بوجه الاصيل الوضاح الا ساءة يتم تجمد السيد المسيح الذي يبلغ بالوحي، في رسالته الالهية، حد الامتلاء وحد الكمال. وكان اليهود يعرفون ان الوحي لم يكن قد اكتمل بعد لاننا نراهم، وهم تحت أسرة هيرودس وروما، ينظرون المخلص العظيم. وعليه فإن كتاب دانيال رويس الثاني يفتح على هذا المشهد: « شمس مذال يتضرع »



ان كتابة حياة المسيح — ثلاثون سنة لم تتعد بقعة صغيرة من الارض — تبعد كل البعد عن استعراض النبي سنة من التاريخ تقضى معظمها في رحيل لا يستقر. واذا كان تاريخ شعب الكتاب عملاً درنه صعوبة الإخراج نظراً لما يهدف اليه المؤلف من الحفر في الجديد، فإن تواريخ حياة المسيح تكاد ألا يحصيها عد، وبينها ما حصل الشهرة الواسعة، وقد عددها دانيال رويس كصادر لكتابه: لاغرانج، غرانفزون، لوبروتون، واخيراً، ورياك الذي يقال فيه: « انه القى على تفهم نفسية الانجيل أضواء لا أجل ولا اسطع ». اما الدراسة التي ستعرض لها الآن حول « يسوع في زمانه » فانها ستظهر لنا بوضوح، شأنها في التاريخ المقدس، سمة اطلاق المؤرخ، وموهبة التجاليل الذاتية في الروائي، ورحابة نظرات النيلسوف، وايمان المؤمن الحار.

« في زمانه ». انه زمان نعرفه جيداً « حيث السلام الروماني » يرف على الابيض المتوسط. وأول ما يملك بنظرنا هو الشعب الاسرائيلي المنحني تحت أسرة الغريب، والمضطر له عداوة لا تهادن، غير انه، شعب الغايات لان روح التفارقة تعمل في احشائه. فهناك الصدوقيون ارباب الفكر، الشيهون باولئك الذين وصفهم برناتوس، والمنقبون ابداً عن الخطأ الطفيف. وهناك الفريسيون الذين حافظوا على وديمة الوحي محافظة الامين، وصعدوا دائماً روح مقاومة حيال الوثنية اليونانية، على انهم، في غمرة كبريائهم الجائعة، وفي عبادة

الحرف التي تكرر سوا لها منذ ثلاثة قرون ، أصبحوا وكأنهم مرميات .
فالولئك وهؤلاء لم يتفهموا ، في منظمتهم ، حقيقة رسالة المسيح التي انفتح عليها
البسطاء والسذج الذين لا عهد لهم بدقائق الشريعة ، الذين هم « كوخرة
مرحلة » هدف لاحتقار الارستوقراطية الصدوقية وارباب الدين .

هذا هو الأمر الاول الذي يلفت النظر . اما في عرض الكتاب « فإن
الجندي الروماني يتأيل امامنا بطاسته الحديدية ومهبطه الارجواني » . ولكي
يساعدنا المؤلف على تفهم أوضاع بيلاطس الذي يحكم اليهودية المعادية له
بواسطة شرذمات قليلة من الجنود الوطنيين ، يرجع بنا الى كيبانغ والى
سموم برومفيلد ، فتشاهد الاسراء الهيرودوسيين يتأيلون كعباً وليس لهم من
سلطان حقيقي ، كأن واحد منهم هربا هندي . واذا ما رفض الكهنة ، صباح
الجمعة العظيمة ، ان يدخلوا الى دار الحاكم تحرقاً من انهم يتدنسون قبل اكلمهم
الفصح ، « تصور جلياً ما ير ببال حاكم احدى المستعمرات ، وقد اضطرب
لرؤيته الجذوع تهيج في العاصمة ، وعلم بان معضلة ملتبسة الحارول ، معقدة ،
عليه ان ينظر بها لا في داره على مدره ، ولكن في الشارع بين جلبة الثائرين » .
اما غسل بيلاطس يديه تبرؤاً من هذه المشكلة اليهودية ، فهو شبيه بما يأتيه
رجل ارستوقراطي مستعمر حيال رجل « وطني » . ويضيف دانيال وويس
هذه الملاحظة : « لننقل احد الحكام وقد جاءته قبيلة من الزنوج برجل ضعيف
الادراك ، شكوه بأنه يقوم باعمال سحرية ، ويطمع في الملك . اذ ذاك
يتراى لنا بسيطاً معقولاً ما كنا قد حسبناه خفة لا تتغفر ، وحيانة سافلة ،
وظلماً صارخاً . . . او بعبارة أجلى ، ان امثال هذا التصرف ليست بنادرة
الوقوع »

ويسهل علينا ان نشير هنا من جديد الى درس شخصيات عديدة ، منها
تناصب يسوع العداء ، وبنهما تواليه كل الموالاة ، وكلها تضج بالحقيقة
الانسانية .

« يسوع في زمانه » هو عنوان كتاب ، توقفنا الآن لدى كلمته الثانية :
« في زمانه » . وانه لحري بنا ان نتوقف هنيهة لدى الكلمة الاولى : « يسوع »

فنعرف ان « شعب الكتاب » لم يعد هو موضوع الدراسة الاساسي ، بشخصياته المتعددة التي ارشدته وقادته ، ولكن الشخصية الفريدة الغدة التي هيئت على هذا الكتاب ، هي شخصية السيد المسيح ، وبمئة السرية الأخاذة .

ويجهر دانيال رويس بان جوهر الدراسة يكمن عبر اللغز الذي يجيئنا به هذا الرجل الشبه بنا الذي يخضع كل حين بكلماته وحركاته ، قوى عديدة فائقة . ان هذا الوجه الذي جمده الالم ينكشف عن وجه اله . انه اله حق وانسان حق . اما كلمة الصلاة فانها تهر الصوابة الذفانية الكلية التي تتصدى لنا في هذه الدراسة ، لاننا ساعة نجد في التطلع الى ملح انساني في طيمة يسوع ، تأخذنا بهرة الاله المتأنس . ورغم هذه الصوابة الآمرة ، فان دانيال رويس يحاول ما استطاع اظهار هذه الصورة اللاممكنة . لقد كان لزاماً علينا ان ننقل في هذا الصدد صفحات وصفحات ولكننا نقصر الان على قراءة صفحة واحدة منها : « انه خطأ فاضح ان نتخيل يسوع مسمراً ، قائماً دون حراك ، صنماً من الجص ، لا ينفج بالحياة اي شعور . فان اشخاصاً كوني من العهد القديم ويوحنا المعمدان في العهد الجديد يظهرون دفعة واحدة ، بيد ان حياة المسيح الانسانية هي غمرة من بهجات ، وقول المسيح : « دعوا الصبيان يأتون الي » تصبه بسة لا الذ ولا اطرى ا وهناك احياناً شيء يمن الهزم اللاذع كما نتحققه من الحوار الذي دار حول الجزية المتوجبة لقيصر : « اعطوا ما لقيصر لقيصر » هو كلام يتجلبب بسخوية عظمى ، وطريقة استهزائية ترد الى المهاجم نزوله المبطن بالجلال . وهناك ايضاً غضبات ، غضبات مقدسة سامية ، تقلي وتنفجر ساعة تمام غيرة الله الاكلة من جنون البشر ونجاهلهم القصدي . فيسرع اذذاك هو سليل هذه الأمة النيفة التي اطلت الانبياء والتي حملت يدوع على الغضب الشديد ، وعلى العنف لأسباب ليست من الروحانية بشي . فاذا ما انهال بسوطه ضرباً على الباعة في الهيكل ، ورفض ببلاغته الصارمة خفايا معلمي اسرائيل وفريسيه ؛ واذا ما قال لسفراء الملك انثياس : « قولوا لهذا الثعلب » ، فانما نتحقق فيه انه انسان يحيش الدم تحت اظافر يديه ، ان محبة دانيال رويس لمعه الالهي تبسيع من كل سطر عبر كتابه الرحيب . وهذه

الحبة هي التي اهابت بأحدهم الى ان يقول لي احد الايام : « انني عندها امرغ من قراءة هذا الكتاب ، اشعر بحاجة ماحاجة في الى اخذ . . . يعني والشروع بالصلاة » - لا اظن ان واضع هذا الكتاب كان يرمي الى ابعاد من هذا الشا .



والان يجدر بنا ان نشير عرضاً في مجموعة المكتبة المسيحية للتاريخ ، الى مؤلف صغير ينطوي على « اناجيل العذراء » . يقسم هذا الكتيب الى ثلاثة اقسام : في القسم الاخير منها اربعون لوحة علق عليها المؤلف وكلها مختصة بالعذراء ؛ وفي القسم الثاني نقرأ المقاطع المتزلة والمحرفة حيث يتراءى لنا العهد الجديد بمية الذين ادعوا تكميله - والذين اعطي لهم ، بعض الاحيان ، جمع شتات من التراجم الحقيقية - والتي تدور حول حياة العذراء . اما القسم الاول ، وهو اقصرها لأنه لا يتجاوز المئة من صفحاته فُحطت بحروف عريض ، فانه يتناول : « كيف نتعرف الى العذراء » ؛ ولكي يجيب عن هذا السؤال فانه يضمها ، هي ايضاً ، « في زمانها » مع اثاث منزلها وثيابها « الصوفية ايام الشتاء ، والقطنية سحابة الصيف ، والمذيل التقليدي على الرأس » . . . اما حياة العذراء فكان قوامها استقاء الماء ، ونقل العجين ليخبز في الفرن . حتى اذا طلعت نهار السبت فانها تتوقف عن العمل نظير جاراتها اليهوديات ، متفرغة لعبادة العذسة الالهية . . . وبالجملة ، « فانها حفنة من مستندات » ، « فتاة يهودية نكرة » ، « اكثر الناس دعة وتواضعاً » . اما هذا التعطش الى طهارة ملائ ، الذي نحله في حنايا الضلوع وقد اضاء النطفولة فيها ، وتنكرت له الحياة يوماً بعد يوم ، فانه هو الذي نلسه منذ اكثر من خمسة عشر قرناً ، في فتاة البشارة الصغيرة ، ان الجاذبية في احدى عذارى جيوتو تتجارب اصدائها في نفسنا مع شيء لم نلسه الحواس ، سابق اكل خطيئة او هوة ، مع هذه البقعة السرية التي نلها فيها بعض الاحيان - كالفا هي . . . عميق ننظر اليه من خلال الاعشاب - حيث الكمال المطاق ينشئنا من التناقضات ، وحيث النقاء الكلي يصبح مرادفاً للمعرفة وللحب .

ويجب التلخيص خصوصاً ، في حياة يسوع ، الى الذوق السليم في النقاد الفني ، سواء أشرح لوحة او وصف مشهداً . . . ولكن لقد حان وقت الانتقال الى المجلد الثالث من مجموعتنا : « كنيسة الرسل الشهداء » .



قد تتطلب قراءة هذا الكتاب عنا ، اكثر مما يتطلبه الكتابان السابقان . اما السبب في ذلك فانما هو غزارة المادة . أجل ان التاريخ المقدس كان يتناول حقبة من الزمان هي نت اوسع سرات اكثر من التي تناولها هذا الكتاب ، على انها كانت مفارسة عشيرة صغيرة ، أو قل مفارسة شعب ضئيل في افق محدود . اما ما يتصدى لنا الان فانما هو ماحمة الصليب التي لا تقا ، خلال ثلاث مئة عام ، تكتمح العالم .

وهناك ايضاً اشبك ثلاث مدنيت : اولاهما اسرعت الى الزوال : هي اسرائيل الذي اطلع الخلاص وشارف على الاضمحلال . وساعة تمحي في ظلال الهيكل المحترق تلك الجماعة اليهودية - المسيحية الصغيرة ، تقوم الكنيسة - خصوصاً بفضل القديس بولس - بدمج الماضي في المستقبل وحدة عجيبة وبادخالها الى رومة ثورة الصليب .

وماذا يقول عن رومة اذ ذاك ، عن سطوتها واستقرارها ؟ « لا الامبراطورية الجرمانية المقدسة ، ولا امبراطورية نابوليون ، ولا الكومنولث البريطاني عهد الملكة فكتوريا ، كانت اكثر سطوة وتوازناً واستقراراً من رومة اذ ذاك . » « فريدة في نظامها ، رحية لا تغلب ، هذه هي الامبراطورية وليدة اللبوة ، باقية البناء على الدهر » . . . ويتابع دانيال رويس قائلاً : « اذا تطامنا الى حقارة الكنيسة الناشئة حيال هذا المارد الجبار ، فانه من الحق ان نتصور تطامناً بين الاثنين لا تخرج منه المسيحية متداعية عطمة »

ومع ذلك فقد حدث العكس . اما كيف ذلك فهاك ما يقوله رويس : « ان اقدام الساكر مشيت في ركابه » كذا قال بيني مردداً كلمة اورييجانوس الذي كتب سنة ٢٢٠ هذا القول : « لان الله اراد ان يحمل في جميع الامم استعداداً لكلام المسيح ، شات عنايته ان تخضع هذه الامم

لامبراطور رومة العظيم « وفهلاً لقد كان السلام الروماني ، والطرقات ، والبحر المطئن ، واللغة اليونانية المتداولة من الفرات الى اعمدة هر كول ، كل هذه رسائل ثينة فصاله لانتشار الانجيل . وفي الاخلاق ايضاً يتدرب الكذب الروحي ، لأن آلهة الاولمب لم تعد سوى اظلال الهة ؛ وفي الجسم الاجتماعي جرح العبودية الدامي وتناثر القيم القديمة : كلها مشاكل هامة جاء الدين المسيحي الجديد باجوبة عليها تفنن العقل . . . ان التباين بين معتقدين في العالم يزداد قوة يوماً عن يوم . هاهم الشهداء . الالف ، بسطون ضحية شمع غافل ، ضحية الطاغية فيرون . وعلى عهد « الانطونيين » كان للاضطهاد ميبان : اقرار السلام ، وتهذنة خواطر الشعب . ولكن « لا يكاد ينتهي القرن الثاني حتى نشاهد العالم الروماني مسرعاً الى الغناء . واما الطابع الذي اتخذته الاضطهادات الرسمية المنظمة فله قيمة اشارة : « ما من دولة تكلف نفسها عنا . عراك منظم إلا اذا كان ثمة عدو يخيف » . ولهذا فإن آخر اضطهاد سكان افطع الاضطهادات « في آخر مراحل الانهيار ، عندما تتلاشى مميزات القيم الادبية . نرى عهداً يطلع او مجتمعاً يملو له ان يسكر من خمرة العذاب الجهنمية . ويؤيد دانيال ورويس ، وهو الفيلسوف الذي تقصى جروحات عهدنا هذا ، يزيد هذه الملاحظة المؤلمة : « ان القرن الرابع لم يكن له ان ينظر الى مشاهد كهذه » وسرعان ما ارتفعت يد الاجلاد فطلع قسطنطين من الحروب الاعلى بعد انهيار « الحكم الرباعي » ورفرف الصليب على العالم كله . « رجل القدر كما قيل ، صاحب قلب طفل عبقرى ، وجه غريب في هذه المرحلة الفارغة حيث التاريخ يعمل على تغيير اوضاعه ، ذاك هو قسطنطين يحطم فوق عظمة رومة القديمة بقايا من جمال غروب لماع ، وخريف . لن يلبث ان يموت . ولكنه كان لاكتينية مبشراً بفرح جديد ، فجر الاستقرار . » ولهذا فإنها قد تناسلت له ذلالاته وجرائمه ، راجبت اسمه الجليل على بحر الدهر .

ان الوقائع التي تصدينا لها ليست سوى مظاهر انتشار المسيحية البعيد : اما الجوهر فليس هناك : انه يمكن في تلك القيم المشعة من التضحية والصلاة ، في هؤلاء الشهداء الذين ظالمنا حدثنا عن بطولتهم ، في جهاد آباء الكنيسة -

كم من شهيد بينهم وقع تأليفه بدمائه - وعلمهم على تبديل المجتمع القديم ،
عامدين الى ما حسن من الماضي ، والى معطيات الوحي ، يصكونها اساً واحداً
ترتكز عليه مدينة الغد . هناك مؤلفات ايونينيانوس واكليمنطوس
الاسكندري ، واوريجنوس ، وايرونيوس ، تمكن دانيال رويس من الايانة
بوضوح عن جوهرها الاصيل . وقد قادنا عبر المجادلات اللاهوتية العنيفة ، طوال
القرن الرابع ، التي تصدت لعقائد الدين « بكل ما في العقل من قوى تهاجم »
— عقل آريوس الذي يشكر للسر كما انه يشكر لاله يتأنس .



لقد حان لنا ان نقول كلمة الختام ، فهل نجزم بأن تلك الصفحات المتجاوزة
الأتين لم تعرف هفوة من الهفوات ؟ انه امتداح مفروض لو عرف به المؤلف
لرفض التصديق . فهناك احياناً بعض شطحات للقلم ، كزعمه مثلاً بان مسيحيي
الرها اضطهدوا لانهم كانوا مناصرين لتدمر ، والصحيح هو ان اضطهادهم تأتى
عن حفظهم المهد لسلالة « الاباجرة » المحلية ، التي خلقتها رومة من الحكم
لارتدادها الى الدين الحق . وزعم ايضاً أن لوسيان هو من سيطر في حين انه
انطاكي . ثم قال بأن مسيحياً من « ازمير » معاصراً للقديس بوليكارپوس ،
قد صنع الحاكم ؛ اما الحقيقة فهي ان هذا المسيحي اراد ان يتعدى الروح
الضاري كي يسرع في اقتراعه . على ان الانتقاد الأهم الذي توجه الى المؤلف
في التاريخ المقدس ، هو التجاوز الى مقارنات بالية ، لشرح علمياً ، على حد
قوله ، اجتياز البحر الاحمر او اجتياز الاردن . كما انه عمد الى اثباتات لا مبرر
لها تقول بان الابجدية سكبت أولاً في ثمانين حرفاً ، وتحدثت الى خمسين
فئة وثلاثين .

جميع هذه الانتقادات ، اذا قيس بمجموعة ما كتبه دانيال رويس ، تنيب
كقطرة في خضم . ماذا ، انقول الآن بأن هذه المجلدات الثلاثة تشير الى تفاوت
في الإخراج بين المجلد واخيه ؟ — أجل ان طابع التاريخ المقدس ، هو ابعدها
في الابتكار الشخصي ؛ على ان حياة يسوع ، تخرج لنا شخصية المعلم لا أجل

ولأحب ، وتعبد اليها ، بشي من الطبيعة التي لم تنل بعد ، مسحة العصر الذي تأملت فيه . أما تاريخ الكنيسة فقد كانت له اعجوبة الوضوح الكلي في عمل يورده القدر .

هذا ، واننا لنغبط النفس لان هذا الكاتب الشهير ، الذي زرع مؤلفاته بين الوف الأكف ، عرف ان المسيحي المثقف يتحتم عليه التبحر بتاريخه ، واعطاه ، ثمرة لجهوده الجبارة ، ومن صميم الفؤاد ، اجمع الوسائل الى هذا التبحر الحبيب .

